حول كتاب الدكتور فانون :

« معذبو الأرض »

بقلم جان بول سارتر

كانت الارض ، منذ عهد غير بعيد ، تعد مليارين من السكان ، منهم خمسمئة مليون من البشر ، ومليار وخمسمئة مليون من الاهالي ، وقد كانوا الاولون يمتلكون الكلمة ، بينما كان الاخرون يستعيرونها . وبين اولئك وهؤلاء ، كان ملوك صغار مباعون ، واقطاعيون ، وبورجوازية مزيفة ملفقة كلها ، يتولون دور الوسطاء . وفي المستعمرات ، كانت الحقيقة تبدو عارية ، ولكن « المتروبولات » كانت تفضلها كاسية ، وكان على ابن البلد ان يحب المتروبول ، كما يحب امه ، على نحو ما . وباشرت النخبة الاوروبية صنع نخبة من الاهاليّ ، فكانت تختار مراهقين وتطبع على جباههم ، بالحديد الحامي ، مبادىء الثقافة الغربية ، وتكم افواههم بكمامات ذات ارنان ، كلمات كبيرة دبقة كانت تلتصق باسنانهم ، وبعد اقامة قصيرة في المتروبول،كانوا يعيدونهم الى بلدهم ، مزوزين . ولم يكن ثمة مايبقى لهؤلاء الاحياء الاكاذيب ليقولوه لاخوانهم ، كانوا يرسلون الصدى ، ومن باريس ، ومن لندن ، ومن امستردام ، كنا نطلق كلمات : « بارتينون ! اخاء ! » فتنفتح في مكان ما بافريقيا واسيا شفاه تردد : « . . نون ! . . خاء ! » وكان ذلك هو العهد الذهبي .

وانتهى العهد الذهبي : ان الافواه تنفتح من تلقاء نفسها ، وكانت الاصوات الصفراء والسوداء ما تزال تتحدث عن نزعتنا الانسانية ، وانما كانت تفعل ذلك لتأخذ علينا لا انسانيتنا . وكنا نستمع في شيء من الاستياء الى خطب المرارة هذه المتأدبة . وقد أخذنا اولا بدهشة مسحورة معتزة : كيف ؟ انهم يتكلمون من تلقاء أنفسهم ؟ انظروا مع ذلك ما الذي صنعنا بهم ! ولم نكن نشك في انهم يقبلون مثلنا الاعلى ، ما داموا يتهموننا بأننا لم نكن امناء له ، وعلى الاثر ، آمنت اوروبا برسالتها : فهي قد جعلت الاسيويين يونانيين ، وخلقت هذا الجنس الجديد : الزنوج اليونانيين اللاتينيين . وكنا نضيف ، فيما بيننا ، بدافع من روح عملي: ثم لندعهم يزعقون ، فان ذلك يعزيهم، ان الكلب الذي ينبح لا يعض .

وجاء جيل آخر ، نقل مكان المسألة . وقد حاول كتابه وشعراؤه ، بصبر لا يصدق ، ان يشرحوا لنا أن قيمنا لم تكن تنسجم مع حقيقة حياتهم الا انسجاما رديئا ، وانهم لم يكونوا يستطيعون ان يطرحوها تماما ، ولا ان يتمثلوها تماما . وكان هذا يعني بالاجمال : انكم تجعلون منا مسوخا، فان نزعتكم الانسانية تدعي اننا عالميون ، ولكن طرائقكم العنصرية تجعلنا خاصين كل الخصوصية . وكنا نستمع اليهم ، مرتاحين : ان حكام المستعمرات لا يؤجرون لكي يقرأوا هيغل ، وهم لهذا قلما يقرأونه ، ولكنهم ليسوا بحاجة الى هذا الفيلسوف ليعرفوا ان الضمائر الشقية كانت تتشوش بمتناقضاتهم . وتكون النتيجة انعدام الفعالية . اذن ، فلنطل شقاءهم ، فلن ينتج من ذلك الا الريح . وكان الاخصائيون يقولون لنا : لو كان ثمة ظل مطلب واحد في أنينهم وشكواهم ، فانه سيكون مطلب

مايزال الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر يدعم قضايا الحرية والتحرر في كل مكان ، حتى ليمكن اعتباره بين الكتاب المعاصرين اكبر نصير للحرية في العالم . وقد انفجرت في هذا الشهر قنبلة فوق بيته بباريس فهدمت شقة بكاملها ، ولكن سارتر لم يصب بأذى ، وليست هذه هي المرة الاولى التي يتعرض فيها للقتل من جراء موقفه المشرف من قضية الجزائر . وننشر فيما يلي ترجمة للمقدمة الرائعة التي كتبها سارتر اخيرا لكتاب هام صدر حديثا في باريس ، وصودر على الاثر ، هو كتاب « معذبو الارض » للدكتور فرانز فانون ، وفيه يتحدث عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر حديثا وصف بانه اعمق ماكتب عن « الاستعمار » . وسيصدر هذا الكتاب قريبا جدا عن « دار الاداب » .

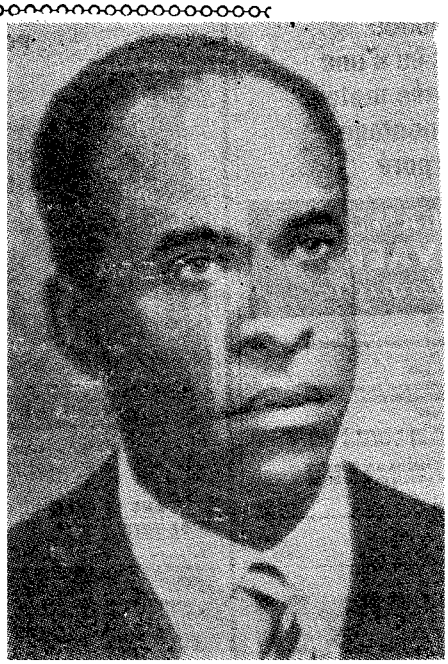

الدكتور فرانز فانون

الاندماج . وبالطبع ، لم يكن أمر تحقيقه لهم واردا : والا لهدمنا النظام الذي يقوم ، كما تعلمون ، على الاستقلال في اقصى حدوده . ولكن سيكفي ان نلوح امام أعينهم بهذا الاغراء الخادع ، حتى يركضوا فرحين . وكنا مطمئنين كل الاطمئنان الى انهم لن يثوروا : فاي ابن بلد واع يبلغ به الامر ان يذبح ابناء اوروبا الجميلين لغاية واحدة هي ان يصبح اوروبيا مثلهم ! وبالاختصار فقد كنا نشجع هذه الالوان من الحنين ، ولم نجد رديئا ، ذات مرة ، أن نمنح زنجيا جائزة غونكور . كان ذلك قبل عام ٣٩ .

١٩٦١ . اسمعوا : « لا نضع الوقت في ترديدات عقيمة او تقليدات مغثية . بل لندع هذه الاوروبا التي لاتني تتحدث عن الانسان فيما هي تقتله حيث وجدته ، في كل منعطف من منعطفات شوارعه بالذات ، وفي كل زوايا العالم . ها قد مرت قرون ... وهي تخنق ، باسم « مغامرة روحية » ، زعومة ، مجموع البشرية تقريبا » . ان هذا الصوت جديد ، فمن الذين يجرؤ على النطق به ؟ افريقي ، انسان من « العالم الثالث » ، استعمرناه من قبل . وهو يضيف : « لقد اكتسبت اوروبا سرعة جنونيه فوضويه بلغ من أمرها ، انها تمضي نحو مهاو يحسن بنا ان نبتعد عنها » انها ، بعبارة اخرى ، هالكة . تلك حقيقة ليس جميلا ان تقال ، ولكننا جميعا ، لحما وجلدا ، مقتنعون بها ، اليس كذلك يا شركائي القاريين الاعزاء ؟

على انه لا بد من تحفظ هنا . فمثلا حين يقول فرنسي لفرنسيين آخرين : « اننا هالكون ! » ـ وهذا ما يحدث ، كما اعلم ، كل يوم تقريبا منذ ١٩٣٠ ـ فان ذلك يكون خطابا عاطفيا ، ملتهبا بالغضب والحب ، وفيه يضع الخطيب نفسه في مغطس واحد مع جميع مواطنيه . ثم يضيف عادة : « الا اذا ... » والمقصود من ذلك واضح : فليس ثمة بعد خطأ يرتكب ، فاذا لم تتبع توصياته حرفيا، فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، تنهار البلاد . وبالاختصار ، فهذا انذار تتبعه نصيحة ، وهذه الاحاديث أقل ايلاما ، لاسيما وانها صادرة عن ذاتية قومية متبادلة .

اما حين يقول « فانون » عن اوروبا بأنها تسعى الى حتفها ، فهو على العكس يقترح تشخيصا للمرض ، ولا يرسل صرخة انذار . ولا يدعي هذا الطبيب ادانة اوروبا ، بلا استئناف ـ فقد حدثت هناك معجزات ـ ولا يقدم لها وسائل الشفاء : وانما هو يقرر انها تحتضر . من الخارج ، معتمدا على العوارض التي استطاع ان يسجلها . اما معالجتها ، فلا : ان في رأسه هموما اخرى ، وسواء لديه ان تموت او تشفى . وكتابه من هذه الناحية، مثير فاضح. واذا خطر لكم ان تتمتموا ، مازحين ومنزعجين: « ما أعجب ما يصمنا به ! » فمعنى ذلك ان طبيعة الفضيحة تفوتكم : ذلك ان فانون « لا يصمكم » بشيء على الاطلاق ، ان كتابه ـ الملتهب بالنسبة لآخرين الى ابعد حدود الالتهاب ـ يظل بالنسبة لكم مثلولا ، ان الحديث فيه هو غالبا عنكم ، ولكنه لا يتوجه اليكم قط . لقد انتهت جوائز الغونكور للزنوج ، وجوائز النوبل للصفر : فلن يأتي بعد ابدا زمن المرشحين المستعمرين . ان « ابن بلد » سابقا ذا لغة فرنسية يطوع الآن هذه اللغة لمتطلبات جديدة ، فيستعملها ويتوجه بها الى المستعمرين وحدهم : « يا أهالي جميع البلاد المتخلفة ، اتحدوا ! » واي سقوط هذا : لقد كنا ، بالنسبة للآباء ، المحاورين الوحيدين ، اما الابناء ، فانهم لا يعتبروننا حتى محاورين صالحين : بل نحن موضوعات الخطب . ان فانون بكل تأكيد يشير في معرض حديثه الى جرائمنا العظيمة ، في سييف ، وهانوي ومدغشقر ، ولكنه لا ينفق جهده في ادانتها : بل هو يفيد منها . وهو اذا كان يفضح طرائق الاستعمار ، واللعبة المعقدة للعلاقات التي توحد وتنصب المعمرين في وجه سكان المتروبول ، فانما يفعل ذلك من أجل اخوانه ، وغايته في ذلك ان يعلمهم كيف يفسدون علينا لعبتنا .

وبالاختصار ، فان « العالم الثالث » يكتشف نفسه ، ويتحدث الى نفسه بهذا الصوت . ومعلوم ان هذا العالم ليس متجانسا ، وانه لا تزال فيه شعوب مستعبدة ، واخرى قد حصلت على استقلال مزيف ، واخرى قد كسبت الحرية الكاملة ولكنها تعيش تحت تهديد مستمر لغزو استعماري . وقد ولدت هذه الفروق من التاريخ الاستعماري ، يعني من الظلم والطغيان . فهنا اكتفى المتروبول بشراء بعض الاقطاعيين ، وهناك فرق ليسود ، ففبرك بورجوازيه مستعمرين ، وهنالك ضربة مزدوجة : فجعل المستعمره موضوع استغلال واسكان في وقت واحد . وهكذا ضاعفت اوروبا الانقسامات والتعارضات ، وصنعت طبقات واحيانا عنصريات ، وحاولت بكل الوسائل والحيل ان تخلق طبقات متراكبة في المجتمعات المستعمره وان تنميها . ولا يخفي فانون شيئا : فان على المستعمرة القديمة ، لكي تقاومنا ، ان تقاوم نفسها بالذات . او ان الامرين على الاصح ليسا الا امرا واحدا . فلا بد لجميع الحواجز الداخلية ان تذوب في نار المعركة ، فبورجوازيه التجار المضاربين العاجزة ، وبروليتاريا المدن المتمتعة بالامتيازات دائما ، والعاطلون في المدن التنكية ، عليهم جميعا ان ينسجموا واوضاع الجموع الريفية التي هي المستودع الحقيقي للجيش الوطني والثوري ؟ ففي هذه المقاطعات التي اوقف فيها الاستعمار عمدا كل تنمية ، سريعا ما تبدو طبقة الفلاحين حين تثور هي الطبقة « الجذرية » : فهي تعرف الطغيان العاري ، وتعاني منه اكثر مما يعاني عمال المدن ، وللحيلولة دون ان تموت جوعا ، فهي بحاجة الى نسف جميع البنيات . فاذا انتصرت ، كانت « الثورة » الوطنية اشتراكية ، اما اذا أوقف اندفاعها ، واستولت البورجوازية المستعمرة على الحكم ، فان « الدولة » الجديدة تظل في ايدي الاستعماريين ، بالرغم من سيادة شكلية ظاهرة . وهذا ما يشهد عليه شهادة كافية مثل كاتانغا . وهكذا فان وحدة « العالم الثالث » لا تتم : انها مشروع للتحقق يمر ، في كل بلد بعد الاستقلال وقبله ، بتوحد جميع المستعمرين تحت قيادة طبقة الفلاحين .

وهذا ما يشرحه فانون لاخوته في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية : فاننا سنحقق جميعا ، وفي كل مكان ، الاشتراكية الثورية ، او سنهزم واحدا بعد الآخر على ايدي طغاتنا الاقدمين . انه لا يخفي شيئا ، لا جوانب الضعف ولا جوانب الخلاف ولا جوانب التضليل . وتأخذ الحركة هنا منطلقا سيئا ، وهناك تفوتها السرعة بعد انتصارات ساحقة، وهنالك تقف تماما : فاذا أريد ان تستعيد سيرها ، فيجب على الفلاحين ان يلقوا ببورجوازيتهم الى البحر . ويحذر فانون القاريء تحذيرا قاسيا من التخليات والتنازلات الخطرة : من مثل قيام الزعامات ، وعبادة الاشخاص ، والثقافة الغربية ، ولا يقل عن ذلك خطرا عودة الماضي البعيد للثقافة الافريقية: ان الثقافة الحقيقية هي «الثورة»، وهذا يعني انها تصنع على الحار .

ان فانون يتحدث بصوت عال ، ونستطيع نحن

الاوربيين أن تسمعه: والدليل هو انكم تمسكون هذا الكتاب بايديكم ، أتراه لا يخشى ان تفيد قوات الاستعمار من صراحته ؟

لا . انه لا يخشى شيئا . ان طرقنا بالية : هي تستطيع احيانا ان تؤخر التحرر ، ولكنها لا توقفه . ولا نتيخيل ان بوسعنا ان نقوم طرقنا : ان الاستعمار الجديد ، هذا الحلم الكسول الذي تحلم به المتروبولات ، انما هو قبض ريح ، ان « القوى الثالثة » غير موجودة ، او انها البورجوازيات ـ التنكية التي سبق للاستعمار ان نصبها للحكم . ومكيافيليتنا ضعيفة التأثير على هذا العالم المستيقظ جدا الذي فضح اكاذيبنا واحدابعد الاخر . وليس امام المعمر الا طريق واحد : القوة ، حين يبقى له منها شيء ، وليس امام ابن البلد الا خيار واحد : العبودية او السيادة . فما عسى ان يهم فانون ان تقرأوا كتابه او لا تقرأوه ؟ فانما هو يفضح لاخوانه اساليب مكرنا القديمة ، وهو واثق من اننا لا نملك غيرها قطع غيار . وهو لهم يقول : لقد وضعت اوروبا اقدامها على قاراتنا ، فيجب ان نجرحها حتى تسحبها ، واللحظة تناسبنا : فليس ثمة ما يحدث في بنزرت او اليزابيتفيل او الريف الجزائري الا وتعرفه الارض كلها ، والكتل تقف متعارضة ، تشل كل منها الاخرى ، فلنفد من هذا الشلل ، ولندخل التاريخ ، وليجعله دخولنا فيه عالميا للمرة الاولى ، لنقاتل : فاذا لم نجد اسلحة اخرى ، فسيكفينا صبر المدية .

افتحوا ، ايها الاوروبيون ، هذا الكتاب ، وادخلوا فيه ، فبعد بضع خطى تخطونها في الظلام ، سترون أجانب مجتمعين حول نار ، فاقتربوا منهم وأصغوا : انهم يناقشون المصير الذي يرصدونه لمواقعكم التجارية وللمرتزقة الذين يدافعون عنها . وقد يرونكم ، ولكنهم سيستمرون في التحدث فيما بينهم ، حتى من غير ان يحفظوا الصوت . وهذه اللامبالاة تضرب القلب : ان الاباء الذين هم مخلوقات الظلام ، مخلوقاتكم « انتم » ، انما كانوا ارواحا ميتة ، كنتم تنشرون عليهم النور ، ولم يكونوا يتوجهون الا اليكم ، ومع ذلك ، فانكم لم تتكلفوا الإجابة على هؤلاء الاشباح . اما الابناء ، فيجهلونكم : ان نارا تضيئهم وتدفئهم ، ليست هي ناركم . وسوف تشعرون ، وانتم على مسافة محترمة ، بأنكم متخفون في الظلام ، ترتعدون : ان لكل دوره . وفي هذه الظلمات التي سينبثق منها فجر جديد ، ستكونون انتم الاشباح .

قد تقولون : ما دام الامر كذلك ، فلنلق هذا الكتاب من النافذة . ما جدوى ان نقرأه ما دام لم يكتب لنا ؟ يجب ان تقرأوه لسببين :

الاول ان فانون يشرحكم لاخواته ويفضح امام أعينهم كيف اصبحنا تائهين : فأفيدوا من ذلك لتكشفوا امام انفسكم حقيقتكم الموضوعية . ان ضحايانا يعرفوننا من جراحهم ومن حديدهم : وهذا ما يجعل شهادتهم شهادة لا ترد . وحسبهم ان يطلعونا على ما فعلناه بهم حتى نعرف ما فعلناه بأنفسنا . أيكون هذا مجديا ؟ نعم ، ما دامت اوروبا تواجه خطر الموت الكبير . وقد تقولون ايضا : ولكننا نعيش في المتروبول ونشجب الفظائع . وهذا صحيح : فأنتم لستم معمرين . ولكنكم لستم خيرا منهم . انهم روادكم ، لقد ارسلتموه فيما وراء البحار ، فأغنوكم ، وكنتم قد حذرتموهم : اذا اراقوا من الدم اكثر مما ينبغي ، فانكم ستنكرونهم من أطراف شفاهكم ، بالطريقة نفسها التي تغذي بها ايه دولة » عصبة من المشاغبين ومثيري الفتن والجواسيس بدون قد ارسلتهم الى الخارج ، ثم تنكرهم حين يقبض عليهم . وانتم ، المشهورين بنزعتكم الحرة ، والانسانيه ، والذين تدفعون حب الثقافه الى حد التصنع ، تتظاهرون بنسيان ان لكم مستعمرات وان القتل فيها يجري باسمكم . وان فانون يكشف لرفاقه ـ ولاسيما لمن صاروا منهم غربيين اكثر مما ينبغي ـ تضامن سكان المتروبول مع عملائهم المعمرين . فلتكن لكم شجاعة قراءته. لهذا السبب الاول انه يثير شعوركم بالعار ، وأن الشعور بالعار ، كما يقول ماركس ، هو شعور ثوري . وترون اني انا ايضا لا استطيع ان أتحلى عن الوهم الذاتي . فانا ايضا اقول لكم : « لقد فقدنا كل شيء ، الا اذا ... » وانا بوصفي اوروبيا ، أسرق كتاب عدو ، واتخذ منه وسيلة لشفاء اوروبا . فأفيدوا من ذلك .

***

وهذا هو السبب الثاني : اذا استبعدتم ثرثرات « سوريل » الفاشية ، فستجدون ان « فانون » هو أول من يلقي النور مجددا ، بعد انجلز ، على مولد التاريخ . ولا تحسبوا ان دما أحر مما ينبغي او تعاسات طفولة قد جعلت له ذوقا خاصا نحو العنف : فقصارى ما يفعله انه يجعل من نفسه ترجمانا للوضع . ولكن هذا يكفي لكي يؤلف ، مرحله فمرحلة ، الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبيرالي والذي أنتجنا كما أنتجه هو تماما .

كانت البورجوازية في القرن الماضي تعتبر العمال حسادا أفسدتهم شهوات جشعة ، ولكنها اهتمت بادخال هؤلاء المتوحشين الكبار في جنسنا : فكيف تراهم سيستطيعون ان يبيعوا بحريه قوتهم في العمل الا اذا كانوا بشرا ، وكانوا احرارا . فالنزعه الانسانية في فرنسا وانكلترا تدعي انها عالمية .

اما الوضع في العمل الاجباري، فنقيض ذلك تماما : فليس ثمة من عقد ، وبالاضافة الى ذلك ، فان التخويف واجب ، واذن ، فان الاضطهاد يبدو هنا . ان جنودنا ، فيما وراء البحار ، يطرحون جانبا العالمية المتروبولية ، فيطبقون على الجنس البشري مبدأ « التمييز العنصري » : فما دام الانسان لا يستطيع الا بالاجرام ان يجرد شبيهه من ممتلكاته ، او يستعبده او يقتله ، فهم يشرعون، كمبدأ ، ان المستعمر ليس شبيها بالانسان . وقد تلفت قوتنا الضاربة مهمة ان تحول هذا اليقين التجريدي الى حقيقة واقعة : فأعطي الامر بخفض سكان المستعمرة الى مرتبة القرود العليا ليبرر للمعمر ان يعاملهم معاملة الحيوانات . والعنف الاستعماري لا يكتفي من اهدافه بشل هؤلاء البشر المستعبدين ، بل هو يعمل على تجريدهم من انسانيتهم . فلن يوفر ثمة شيء لتصفية تقاليدهم ، ولاستبدال لغاتهم بلغاتنا ، وبهدم ثقافتهم من غير ان نعطيهم ثقافتنا ، وسوف يخبلون من فرط الانهاك . فاذا ظلوا على مقاومتهم ، بعد أساءة تغذيتهم وامراضهم ، فان هناك الخوف ينجز العمل: وهكذا تصوب البنادق على الفلاحين ، ويأتي مدنيون فيقيمون على أرضه ويقسرونه بالسوط على ان يحرثها

لهم . فاذا قاوم ، أطلق الجنود النار ، فاذا هو انسان ميت، واذا خضع انحط ، فليس هو انسان ، وسوف يشقق الخجل والخوف طبعه ، ويهدمان شخصه . ويقود العمليه، بخشونه ، احصائيون . وليس تاريخ « الحدمات البسيكولوجيه » حديثا . وذلك غسل المخ .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الجهود الكثيرة ، فان الهدف لم يبلغ في اي مكان . لا في الكونغو حيث كانت تقطع ايدي الزنوج ، ولا في انغولا حيث كانت شفاه المستائين تثقب ، منذ عهد حديث ، لتغلق بالاقفال . وانا لا ادعي ان من المستحيل تحويل الانسان الى حيوان : وانما اقول ان ذلك لا يتم من غير انهاكه الى أبعد حد ، فالضربات لا تكفي قط، بل لا بد من دفع سوء التغذية الى غاية المدى. انه الصجر ، مع الاستعباد . فحين نستعبد فردا من جنسنا ، نخفف من انتاجه ، وينتهي الامر بانسان القن ، مهما كان ما يقدم له ضئيلا ، الى ان يكلف اكثر مما ينتج . ولهذا السبب ، يضطر المعمرون الى وقف التربيه في منتصفها : وتكون النتيجة، لا انسانا ولا حيوانا ، وانما «ابن البلد » . وسواء كان أصفر او اسود او ابيض ، فهو ، في ذله وسوء تغذيته ومرضه وخوفه ، ولكن الى حد ما فقط ، ذو خصائص واحدة : انه كسول ، منافق ، سارق ، يعيش من لا شيء ، ولا يعرف الا القوة .

ويا للمعمر المسكين : هذا هو تناقضه ينكشف . ان عليه كما يفعل الجن ، على ما يقولون ، ان يقتل اولئك الذين يسلبهم . وهذا في الواقع ليس ممكنا : الا ينبغي كذلك ان يستغلهم ؟ فهو اذا لم يدفع القتل حتى الابادة . واذا لم يدفع العبودية حتى التوحش ، فانه يفقد القدرة على العمل ، وتنقلب العمليه بحيث ان منطقا لا يخطيء يقودها الى انهاء الاستعمار .

وليس ذلك على الفور . فان الاوروبي يود بادىء ذي بدء : لقد سبق له ان خسر ، ولكنه لا يلاحظ ذلك ، انه لا يعرف بعد أن الاهالي هم اهالي مزيفون ، فهو اذا صدقناه انما يؤذيهم ليهدم او ليكبت الاذى الذي يكنونه في أنفسهم ، بحيث ان غرائزهم الشريرة لن تولد من جديد ، بعد ثلاثة أجيال . اية غرائز ؟ الغرائز التي تدفع العبيد الى قتل السيد ؟ فكيف تراه لا يعرف فيها قسوته الذاتية مرتدة اليه ؟ ووحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين ، كيف تراه لا يجد فيها وحشيته كمعمر ، هذه الوحشية التي امتصوها بكل مساماتهم والتي لا يشفون منها ؟ ان السبب بسيط : فهذا الشخص الجبار ، المجنون بقدرته العظيمة ، وبالخوف من ان يفقدها ، لا يتذكر بعد جيدا انه كان انسانا : انه يظن نفسه سوطا او بندقية ، وقد انتهى الامر به الى الاعتقاد ان استعباد « الاجناس الدنيا » يتم بتكييف ردود فعلها . انه يهمل الذاكرة البشرية ، والذكريات التي لا تمحى ، ثم ان هناك خصوصا هذا الذي قد لا يكون عرفه قط : اننا لا نصبح ما نحن ، الا بانكار ما فعلوه بنا انكارا صميميا جذريا . ثلاثة أجيال ؟ ان ابناء الجيل الثاني ما يكادون يفتحون عيونهم حتى يروا آباءهم يقتلون ، فاذا هم « مجرحون » على حد تعبير علم النفس التحليلي . ولمدى الحياة . ولكن هذه الاعتداءات المتجددة بلا انقطاع ، بدل ان تدفعهم الى الخضوع ، تقذفهم في تناقض غير محتمل لا بد للاوروبي عاجلا او آجلا ان يدفع ثمنه . وبعد ذلك ، ليؤدبوا بدورهم ويروضوا ، وليعلموا العار والالم والجوع ، فان ذلك لن يخلف في أجسامهم الا غضبا بركانيا تساوي طاقته طاقة الضغط الذي يمارس عليهم . كنت تقول : انهم لا يعرفون الا القوة ؟ بكل تأكيد . انها اولا لن تكون الا قوة المعمر ، ولن تلبث ان تصبح قوتهم ، وهذا يعني انها هي القوة نفسها مرتدة علينا ، على نحو ما تأتي صورتنا لتلقانا من أعماق مرآة . فلا يخدعنكم ذلك ، انما هم بشر ، بسبب هذا الغضب الجنوني ، وهذا الغيظ والحقد ، ورغبتهم الدائمة في قتلنا ، والتوتر الدائم في عضلاتهم القوية التي تخشى ان تنحل ، انهم بشر ، بسبب من المعمر الذي يريدهم بشرا للجهد ، وهم بشر في وجهه . ان حقدهم المجرد ، والذي ما يزال أعمى ، هو كنزهم الوحيد : ان « السيد » يخلقه لانه يسعى الى تخبيلهم ، وهو يخفق في تخطيمه لان مصالحه توقفه في منتصف الطريق ، وهكذا يظل الاهالي المزيفون انسانيين ، بسبب قدرة المضطهد وعجزه اللذين يتحولان — لديهم — الى رفض عنيد للوضع الحيواني . اما الباقي ، فمفهوم ، انهم كسالى بكل تأكيد : هذا نوع من السابوتاج (التخريب) وهم كذلك منافقون ولصوص . ان اختلاساتهم البارعة تسجل بدء مقاومة لا تزال غير منظمة . وهذا لا يكفي : ان هناك من يؤكدون أنفسهم بان يرتموا ضد البنادق ، وايديهم عارية ، اولئك هم أبطالهم ، وهناك آخرون يجعلون انفسهم بشرا باغتيال الاوروبيين ، فيقتلون : وسواء أكانوا قطاع طرق أم شهداء ، فان تعذيبهم يبعث الحماسة في نفوس الجموع المرهبة .

جموع مرهبة ، أجل : ففي هذه اللحظة الجديدة ، يتحول العدوان الاستعماري الى « ارهاب » لدى المستعمرين . وانا لا اقصد بهذا فقط الخوف الذي يستشعرونه امام وسائلنا القمعية التي لا تنفد ، بل أقصد كذلك الخوف الذي يوحيه لهم غضبهم الهائل بالذات ، انهم محصورون بين أسلحتنا المصوبة اليهم ، وهذه الانفعالات المخيفة ، وتلك الرغبات في القتل التي تصعد من أعماق القلوب وقد لا يفهمونها دائما : لان هذا ليس اولا عنفهم « هم » ، وانما هو عنفنا نحن ، مرتدا ، ينمو ويمزقهم ، والحركة الاولى التي يأتيها هؤلاء المضطهدون هي ان يخفوا في اعماقهم الغضب الذي لا يعترف به والذي تشجبه اخلاقيتهم واخلاقيتنا ، والذي ليس هو مع ذلك الا آخر ملجأ لانسانيتهم . اقرأوا فانون : فستعلمون أن جنون القتل هو لاشعور المستعمرين الجماعي ، في زمن عجزهم .

وهذا الغضب الهائل المكبوت ، يدور خول نفسه اذا لم ينفجر ، ويكتسح المضطهدين انفسهم . ولكي يتحرروا منه ، يبلغ بهم الامر ان يقتتلوا فيما بينهم : ان القبائل تقاتل بعضها بعضا لانها لا تستطيع ان تجابه العدو الحقيقي — وتستطيعون ان تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لالهاب منافساتها ، ان الاخ حين يرفع المدية ضد أخيه ، يحسب أنه يهدم مرة والى الابد الصورة المحتقرة لذلهما المشترك . ولكن هذه الضحايا التكفيرية لا تهدىء عطشهم الى الدم ، وهم لن يمتنعوا عن التوجه الى الرشاشات الا بأن يجعلوا انفسهم ضالعين معنا : وهذا النزع للانسانية الذي يدافعونه ، يمضون طوعا لتعجيل تقدمه ، فهم تحت نظر المعمر المرح ، سوف يتزودون ضد أنفسهم بحواجز تفوق الطبيعة ، فينعشون تارة أساطير قديمة مريعة ، ويتقيدون تارة أخرى بطقوس رقيقة : وهكذا يفر المأخوذ من تطلبه العميق بأن يكبد نفسه اهواء مهووسة تشغله كل لحظة . انهم يرقصون : وهذا يشغلهم ، هذا يرفي عضلاتهم المتوترة توترا مؤلما ، ثم ان الرقص يتمتم سرا ، وبالخفية عنهم ، « اللا » التي لا يستطيعون التطور بها ،

والقتل الذي لا يجرؤون على ارتكابه . وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الاخير : التملك . ان ما كان في الماضي عملا دينيا في بساطته ، نوعا من اتصال المؤمن بالمقدس ، يجعلون منه سلاحا ضد اليأس والذل : ان الزار والجن وأقدس المقدسين يحلون فيهم ، فيحكمون عنفهم ويبذرونه في ارتعاشات حتى النفاد . وفي الوقت نفسه ، فان هذه الشخصيات العليا تحميهم : وهذا يعني ان المستعمرين يحتمون من الاستحواذ الاستعماري بمضاعفة الاستحواذ الديني ، وتكون النتيجة الوحيدة ، في آخر المطاف ، انهم يجمعون الاستحواذين وأن كلا منهما يتعزز بالآخر . وهذا ما يحدث في بعض الامراض النفسية لدى مهلوسين يتعبهم أن يهانوا كل يوم ، فيخيل اليهم انهم يسمعون ذات صباح صوت ملاك يهنئهم ، ولا يكون ذلك كافيا لوقف الشتائم : وانما هي تتخلل صوت التهنئة . انه دفاع ، وهو نهاية مغامرتهم : ان الشخص ينقسم ويتحلل ، والمريض يسير نحو الجنون . وتستطيعون ان تضيفوا ، بالنسبة لبعض الاشخاص المختارين بدقة ، ذلك التملك الآخر الذي أشرت اليه آنفا : الثقافة الغربية . وربما قلتم : لو كنا في مكانهم ، لفضلنا « الزار » على الاكروبول . حسنا : لقد فهمتم . ولكنكم لم تفهموا تماما ، لانكم لستم في مكانهم . لستم بعد في مكانهم . والا لادركتم انهم لا يستطيعون أن يختاروا : ولذلك فهم يجمعون . ان العالمين يعنيان تملكين : رقص طوال الليل ، وعند الفجر ، تزاحم في الكنائس لسماع القداس، ويوما بعد يوم يتسع الخرق. ان عدونا يخون اخوانه ، ويضلع معنا ، وكذلك يفعل اخوانه . وهكذا تكون «الاهلية» مرضا نفسيا يدخله المعمر الى ارض المستعمرين « وبموافقتهم » .

المطالبة بالوضع الانساني ، وانكاره في وقت واحد : ان التناقض هنا متفجر . وهو ينفجر فعلا ، وتعلمون ذلك علمي اياه . ونحن نعيش في زمن الانفجار : فحسب زيادة المواليد ان ينمي المجاعة ، وحسب القادمين الجدد ان يخافوا ان يعيش اكثر قليلا من ان يموتوا ، حتى يكتسح تيار العنف جميع الحواجز . ان قتل الاوروبيين يتم في وضح النهار في الجزائر وفي أنغولا . انها لحظة ارتداد الاذى على فاعله ، المرحلة الثالثة للعنف : انه يرتد علينا فيضربنا ، ونظل كالماضي غير مدركين انه عنفنا نحن .

ويظل « التحرريون » مشدوهين : انهم يعترفون اننا لم نكن مؤدبين بما فيه الكفاية مع الاهلين ، وانه كان أعدل واكثر حكمة ان نمنحهم بعض الحقوق في حدود الممكن ، انهم لم يكونوا يطلبون اكثر من أن نقبلهم جماعات متلاحقة في هذا النادي المغلق جدا ، والذي هو جنسنا : وها أن هذا الانطلاق البربري المجنون لا يوفرهم اكثر مما يوفر المعمرين الاردياء . وينزعج اليسار المتروبولي : انه يعرف المصير الحقيقي للاهالي، والاضطهاد الذي يلحقهم بلا هوادة، فهو لا يدين تمردهم ، مدركا اننا انما فعلنا كل شيء لنخلقه . ولكنه يفكر مع ذلك بأن هناك حدودا : فلا بد أن هؤلاء المحاربين حرب عصابات حريصون على ان يظهروا فروسيتهم ، فتلك هي خير وسيلة لاثبات انهم بشر . واحيانا يلومهم ذلك اليسار بقوله : « انكم تبالغون ، ونحن لن نؤيدكم بعد » غير انهم لا يبالون بذلك : ان التأييد الذي يصيبونه لا غناء فيه . فمنذ أن بدأت حربهم ، ادركوا هذه الحقيقة الصارمة : اننا جميعا نساوي ما نحن اياه ، ولقد افدنا جميعا منهم ، وليس ان يثبتوا شيئا ، وهم لن يعاملوا أحدا معاملة خاصة . هناك واجب واحد ، وهدف واحد : طرد الاستعمار « بجميع » الوسائل . وسوف يكون اكثرنا تبصرا مستعدين في اخر المطاف لاقرار ذلك، لا يستطيعون الامتناع عن ان يروا في « تجربة القوة » هذه اللاانسانية ، الا بشرا متخلفين قد لجأوا اليها ليحصلوا على ميثاق للانسانية : فليعطوه باسرع وقت ممكن ، وليحاولوا انذاك ، بمشاريع سلمية ، ان يستحقوه . ان ارواحنا اللطيفة هي عنصرية .

وستجد هذه الارواح فائدة في قراءة فانون ، فهو يثبت بكل قوة ان هذا العنف الذي لا يرد ليس هو عاصفة غير معقولة ، ولا بعثا لغرائز متوحشة ، حتى ولا نتيجة للغيظ المنفل : وانما هو الانسان نفسه يعيد بناء نفسه . واعتقد اننا قد عرفنا هذه الحقيقة ، ولكننا نسيناها : ان آثار العنف لن تمحوها اية رقة او لطافة ، والعنف وحده هو الذي يستطيع ان يزيلها . وانما يشفى المستعمر من مرض العقدة الاستعمارية بطرد المعمر بالسلاح . وحين ينفجر غضبه ، يسترد شفافيته المفقودة ، ويعرف نفسه بمقدار ما يضعها ، ومن بعيد نعتبر خربه كانتصار البربرية، ولكنها تعمل بنفسها على تحرير المقاتل تحريرا تدريجيا ، وتصفي في نفسه وخارج نفسه الظلمات الاستعمارية ، بصورة تدريجية . فهي ما أن تبدأ ، حتى تكون بلا هوادة . وعلى المرء ان يبقى مروعا او يصبح مروعا ، وهذا يعني ان يستسلم لتحللات حياة مزورة او يكتسب الوحدة التي ولد عليها . وحين يمس الفلاحون البنادق ، تمتقع الاساطير القديمة وتنقلب المحرمات واحدا اثر واحد : ان سلاح المقاتل هو انسانيته . ذلك انه لا بد من القتل في الزمن الاول للتمرد ، وقتل اوروبي هو ضرب لعصفورين بحجر ، حذف لمضطهِد ولمضطهَد في وقت واحد : وانما يبقى رجل ميت ورجل حر ، وللمرة الاولى ، يحس الذي بقي حيا ، ارضا « وطنية » تحت باطن قدميه . وفي هذه اللحظة لا تبتعد «الامة» عنه : فهي توجد حيث يذهب، حيث يكون — وليس ابعد من ذلك ، انما تمتزج بحريته . ولكن جيش الاستعمار يتحرك ، بعد المفاجأة الاولى : فعليه ان يتحد والا فسوف يقتل. وتخف المنازعات القبلية ، وتميل الى الزوال : لانها اولا تضع « الثورة » موضع الخطر ، ولانها ، بصورة اعمق لم يكن لها من مهمة الا ان تحرف العنف نحو اعداء مزيفين . اما اذا بقيت قائمة ، كما هو الحال في الكونغو ، فذلك لانما يغذيها عملاء الاستعمار . وتبدأ « الامة » السير : فهي بالنسبة لكل أخ موجودة حيث يقاتل اخوان اخرون ، ان الاخوي هو الوجه الاخر من الحقد الذي يكنونه لكم : انهم اخوة ، في ان كلا منهم قد قتل ، او يمكن بين لحظة واخرى ان يكون قد قتل .

وفانون يظهر لقرائه حدود « التلقائية » ، وضرورة « التنظيم » واخطاره . ولكن مهما كانت المهمة جسيمة ، فان الوعي الثوري يتعمق لدى كل مرحلة من مراحل نمو العمل. وتزول آخر العقد ، فمنذا الذي يستطيع ان يحدثنا عن عقدة « التبعية » لدى جندي من جنود « جبهة التحرير»؟ وحين يتحرر الفلاح من غشاوته يعرف ما هي حاجاته : صحيح انها كانت تقتله ، ولكنه كان يحاول أن يتجاهلها ، وهو يكتشفها الان كمتطلبات مطلقة . وفي هذا العنف الشعبي الذي قاوم خمسة اعوام ، وثمانية اعوام كما فعل الجزائريون ، لا يمكن للضرورات العسكرية والسياسية والاجتماعية ان تتميز فيما بينها ، ان الحرب ، حتى ولو

اقتصرت على طرح موضوع القيادة والتبعات ، تقيم بنيات جديدة ستكون اولى مؤسسات السلام . وهكذا ينبثق الانسان حتى في التقاليد الجديدة ، التي هي بنات مستقبل لحاضر فظيع ، هكذا يصبح مشروعا بحق سوف يولد ، وهو يولد كل يوم معمدا بالنار ، فمع اخر معمر يقتل او يسفر او يهضم ، يزول جنس الاقلية ، مخليا المكان للاخوة الاشتراكية . وهكذا لا يزال غير كاف : فان هذا المقاتل يحرق المراحل ، وانتم تدركون انه لا يجازف بحياته ليكتفي بان يجد نفسه على مستوى الانسان « المتروبولي » العجوز . انظروا الى صبره : فربما حلم احيانا بديان بيان فو جديدة ، ولكن يجب ان تعتقدوا بانه لا يعول على ذلك حقا: فهو فقير يكافح في بؤسه ضد اغنياء مسلحين تسليحا قويا ، وهو بانتظار الانتصارات الحاسمة ، وغالبا من غير ان ينتظر شيئا ، يرهق خصومه حتى الاشمئزاز . وذلك لا يتم من غير خسائر مريعة ، فان جيش الاستعمار يصبح متوحشا ، فيعمد الى اعمال التطهير والتجميع والحملات التأديبية وتقتل النساء والاطفال . وهو يعرف ذلك : ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته كانسان من نهايتها ، وهو يعتبر نفسه ميتا بالقوة ، وسوف يقتل : وليس الامر قاصرا على انه يقبل التعرض للقتل ، بل هو من ذلك على يقين ، وهذا الميت بالقوة قد فقد زوجته واولاده ، وقد رأى عددا كبيرا من الناس يحتضرون حتى انه يفضل الانتصار على البقاء حيا ، سيفيد اخرون من النصر ، لا هو : فهو مجهد اكثر مما ينبغي . ولكن تعب القلب هذا هو مصدر شجاعة لا تصدق . فبينما نجد نحن انسانيتنا بعيدا عن الموت والياس ، يجدها هو بعد التعذيب والموت . لقد كنا نحن زارعي الريح ، وهو الذي كان العاصفة . انه يستمد من العنف ، الذي هو ابنه ، انسانيته كل لحظة ، لقد كنا بشرا على حسابه ، وهو يجعل من نفسه انسانا على حسابنا . ولكنه انسان اخر : من نوع افضل .

***

وهنا يقف فانون : لقد ارشد الى الطريق : انه لسان حال المحاربين يطالب بالاتحاد ، وبوحدة القارة الافريقية ضد جميع المنازعات والتحيزات المحلية . وقد بلغ غايته . ولو كان يريد ان يصور تصويرا كاملا الحدث التاريخي لتصفية الاستعمار ، لوجب عليه ان يتحدث عنا: وليس هذا هو قصده . ولكننا حين نغلق الكتاب ، فانه يستمر فينا ، بالرغم من مؤلفه : ذلك اننا نشعر بقوة الشعوب النائمة ، ونرد عليها بالقوة . واذن ، فان هناك لحظة جديدة للعنف ، وهذه المرة ، ينبغي ان نعود الى انفسنا نحن ، لان العنف بسبيل ان يغيرنا بمقدار ما يتغير ابن البلد المزيف عبره . ولكل ان يقود افكاره كما يشاء ، شريطة ان يفكر طبعا : ففي اوروبة اليوم ، المترنحة تحت الضربات التي توجه اليها ، في فرنسا ، وبلجيكا ، وانكلترا ، يعتبر اي شرود عن الفكر ضلوعا مجرما مع الاستعمار .

ولم يكن هذا الكتاب باية حاجة الى مقدمة ، لا سيما وانه لا يتوجه الينا . ومع ذلك فقد قدمت له ، لادفع الديالكتيك الى نهايته : فان الاستعمار يصفى عنا ، نحن الاوروبيين ايضا ، وهذا يعني ان المعمر الكامن في كل منا ينتزع بعملية دامية فلننظر الى انفسنا ، ان كنا نملك الجرأة على ذلك ، ولنر ماذا يحدث لنا .

يجب ان نواجه اولا هذا المشهد غير المنتظر : تعرية انسانيتنا . هذه هي انسانيتنا عارية تماما ، غير جميلة : انها لم تكن الا ايديولوجية كاذبة ، الا التبرير اللذيذ للسلب ، وقد كانت رقتها وحذلقتها تغطيان اعتداءاتنا . واللاعنفيون يتمتعون بصحة جيدة : فليسوا هم ضحايا ولا جلادين ! كفى ! كفى ! اذا لم تكونوا ضحايا ، حين تكون الحكومة التي نصبتموها للحكم ، والجيش الذي خدم فيه اخوتكم ، قد قاما بلا تردد ولا ندم « بعملية ابادة جماعية » ، فانتم بلا شك جلادون . واذا اخترتم ان تكون ضحايا ، وان تتعرضوا ليوم او يومين من السجن ، فانما تختارون ببساطة ان تنسحبوا من اللعبة . ولكنكم لن تنسحبوا : فيجب ان تبقوا فيها الى النهاية . لقد آن لكم اخيرا ان تفهموا هذا : اذا كان العنف قد بدأ هذا المساء ، اذا لم يوجد الاستغلال والاضطهاد فوق هذه الارض فقط ، فربما كان باستطاعة اللاعنف المعان ان يهدىء النزاع . اما اذا كان نظام الحكم كله ، بما في ذلك افكاركم اللاعنفية ، مكيفا باضطهاد يرجع عهده الى الوف السنين ، فان سلبيتكم لن تفيد الا في جعلكم منحازين الى جانب المضطهدين .

انتم تعلمون جيدا اننا مستغلون ، وانتم تعلمون جيدا اننا اخذنا الذهب والمعادن ، تم البترول ، من « القارات الجديدة » واننا نقلناها الى المتروبولات القديمة . وحصلنا على نتائج ممتازة : قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية ، وحين كانت الازمة تهددنا بعد ذلك ، فان اسواق المستعمرات موجودة هناك لتخفيفها او تحويلها . واوروبا المتخمة بالثروات منحت حقوقيا صفة الانسانية لكل سكانها فالانسان عندنا يعني المشارك في الذنب ، ما دمنا جميعا قد افدنا من استغلال المستعمرات . وقد انتهى الامر بهذه القارة السمينة الممتعة ان غرقت بما يسميه فانون بحق « النرجسية » . لقد كان كوكتو ينزعج من باريس « هذه المدينة التي تتحدث طوال الوقت عن نفسها . » واوروبا ، ما الذي تفعله غير هذا ، وهذا المسخ الفوق اوروبي ، اميركا الشمالية ؟ يا لها من ثرثرة : حرية ، مساواة ، اخوة ، حب ، شرف ، وطن ، الخ ... ؟ ان ذلك لم يكن يمنعنا من ان نتحدث في الوقت نفسه احاديث عنصرية ، زنجي قذر ، يهودي قذر ، « جرذ » عربي قذر . وهناك اشخاص صالحون ، ليبراليون لطفاء ـ استعماريون جدد بالاجمال ـ كانوا يدعون ان هذا التناقض يصدمهم ، وفي ذلك خطأ او نية سيئة : فليس ثمة ما هو اشد انسجاما لدينا من هذه النزعة الانسانية والعنصرية في وقت واحد ، ما دام الاوروبي لم يستطع ان يجعل من نفسه انسانا الا بان صنع عبيدا ومسوخا ، وقد ظلت هذه الكذبة مقنعة ، مادامت « الاهلية » قائمة ، لقد كانوا يجدون في الجنس البشري افتراضا تجريديا بالعالمية الشمولية كانوا يستخدمونها لتغطية تطبيقات اكثر واقعية ، كان فيما وراء البحار عرق من البشر المتخلفين ربما استطاع بفضلنا، بعد الف عام ، ان يبلغ وضعنا ، وبالاختصار كانوا يخلطون بين النوع والنخبة . اما اليوم ، فان ابن البلد يكشف حقيقته ، فيكشف نادينا المغلق ضعفه فورا : انه لم يكن لا اكثر ولا اقل من اقلية . وهناك ماهو اسوأ : فما دام الاخرون قد اكتسبوا انسانيتهم ضدنا ، فقد ظهر اننا اعداء الجنس البشري ، ان النخبة تكشف طبيعتها الحقيقية : وهي انها عصابة . وهكذا تفقد قيمنا الغالية اجنحتها ، واذا نظرنا اليها عن كثب ، لم نجد قيمة واحدة لم تلطخ بالدم . واذا كنتم بحاجة الى مثال ، فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة :

ما اكرمها واسمحها ، فرنسا ! نحن ، الكرماء السمحاء ؟ وسطيف ؟ وهذه الاعوام الثمانية من الحرب الوحشية التي مات فيها اكثر من مليون جزائري ؟ والتعذيب بالكهرباء ؟ ولكن افهموا جيدا انهم لايلوموننا باننا خنا لا ادري اية رسالة :لسبب بسيط ، هو اننا لم تكن لنا اية رسالة ، وانما الكرم نفسه هو الذي يوضع موضع التساؤل ، ان هذه الكلمة الغنائية الجميلة ليس لها الا معنى واحد : النظام الممنوح . فبالنسبة للناس الذين هم قبالتنا ، الناس الجدد المتحررين ، ليس ثمة شخص يستطيع او يملك امتياز اعطاء شيء لاحد . ان كل انسان يملك جميع الحقوق ، على الجميع ، وحين يتم صنع نوعنا الانساني ذات يوم ، فانه لن يتحدد كمجموع سكان الكرة ، بل كوحدة لانهائية للتبادل المشترك فيما بينهم . وانا اقف هنا ، وسوف تنهون العمل بلا مشقة ، حسبنا ان نواجه للمرة الاولى والاخيرة فضائلنا الارستوقراطية : انها تموت ، فكيف تراها ستبقى حية بعد ارستوقراطية البشر المتخلفين الذين اوجدوها ؟ لقد حدث منذ بضع سنوات ان معلقا بورجوازيا ــ واستعماريا ــ دافع عن الغرب فلم يجد الا ان يقول : « نحن لسنا ملائكة . ولكننا نحن ، على الاقل ، نشعر بالندم . » فياله من اعتراف! لقد كان لقارتنا في الماضي عوامات اخرى : البارتينون ، شارتر ، حقوق الانسان ، الصليب المعقوف . وقيمتها الان معروفة : وليس ثمة من يدعي بعد النجاة من الغرق الا بالشعور شعورا مسيحيا جدا بالذنب وهذه هي النهاية كما ترون : ان اوروبا يجرفها الطوفان من كل جانب .

فما الذي قد حدث ؟ حدث هذا بكل بساطة : وهو اننا كنا صناع التاريخ ، فأصبحنا الان عبيده . لقد انقلب ميزان القوى ، وتصفية الاستعمار قائمة على قدم وساق ، وكل مايستطيعه مرتزقتنا هو ان يحاولوا تأخير انجاز هذه التصفية .

وحتى هذه المحاولة لن تنجح الا اذا القت المتروبولات بكل ثقلها ، وان تجند كل قواها لمعركة خاسرة سلفا . وهذه القوة الاستعمارية القديمة التي جعلت امثال «بوجو» يحرزون امجادا مشكوكا فيها ، سوف نجدها في نهاية المغامرة قد تضاعفت عشرة اضعاف وظلت مع ذلك غير كافية . لقد ارسل جيش المجندين الى الجزائر ، فمكث فيها سبع سنوات بلا نتيجة . لقد تغير معنى العنف ، كنا نمارسه ، ونحن منتصرون ، من غير ان يبدو انه يعكر علينا حياتنا : لقد كان يحلل الاخرين ،اما نحن ، فقد كانت انسانيتنا تظل سليمة لم تمس ، وكان سكان المتروبول ، والنفع يوحدهم ، يعمدون بالاخوة ، والحب مجتمع جرائمهم اما اليوم ، فان العنف نفسه ، وقد حوصر من كل جانب ، يرتد علينا عبر جنودنا ، ويمتلكنا . ان الاية تنعكس والتطور ينقلب : فيؤلف المستعمر نفسه من جديد ، ونحن نتحلل، غلاة وليبراليين ، معمرين ومتروبوليين . وكان الغضب والخوف قد بدأ يتعريان ، وظهرا مكشوفين في عمليات « صيد الجرذان » في الجزائر . فاين هم المتوحشون الان ؟ اين هي البربرية ؟ ليس من شيء ناقص ، حتى ولا التام ــ تام : فان صفارات السيارات توقع « الجزائر فرنسية » فيما يحرق الاوروبيون المسلمين احياء . ويذكر قانون ان بعض علماء النفس التحليلي كانوا يعبرون عن حزنهم تجاه اجرام الاهالي ، ويقولون : ان هؤلاء الاشخاص يقتتلون ، وليس هذا طبيعيا ، لان مخ الجزائري لابد ان يكون مخا متخلفا . وقرر اخرون في افريقيا الوسطى ان « الافريقي قلما يستعمل قواه العقلية » . ومن المفيد لهؤلاء العلماء ان يواصلوا تحقيقهم اليوم في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا . فلا بد اننا نحن ايضا مصابون منذ بضعة اعوام بالكسل العقلي : ان الوطنيين يغتالون قليلا مواطنيهم ، فاذا كان هؤلاء غائبين ، نسفوا بيتهم وحارسهم . وليس ذلك الا بداءة : ان الحرب المدنية متوقعة في الخريف او في الربيع القادم . ومع ذلك ، فان امخاخنا تبدو في حالة ممتازة : الا يكون سبب ذلك بالاحرى ان العنف ، لعجزه عن سحق ابن البلد ، يرتد على نفسه ، ويتجمع في اعماقنا يلتمس له مخرجا ؟

ان وحدة الشعب الجزائري تنتج تمزق الشعب الفرنسي : ففوق ارض المتروبول السابق ، ترقص القبائل وتستعد للمعركة . لقد غادر الارهاب افريقيا ليقيم هنا : لان هناك غاضبين حقا يريدون ان يجعلونا ندفع من دمنا ثمن العار الذي اصابهم اذ هزمهم ابن البلد ، ثم هناك الاخرون ، جميع الاخرين ، الذين لايقلون اجراما وان كانت نفوسهم قريرة ــ فمنذا الذي نزل الى الشارع بعد بنزرت، وبعد عمليات التقتيل ليقول : كفى ؟ ــ جميع الليبراليين ومتصلبي اليسار المائع . ان الحمى ترتفع في نفوسهم كذلك ، والغضب . ولكن كم هم مذعورون! انهم يقنعون غضبهم بالاساطير ، وبالطقوس المعقدة . ولكي يؤخروا تصفية الحساب النهائي ، وساعة الحقيقة ، نصبوا علينا « ساحرا كبيرا » مهمته ان يبقينا في الظلام بأي ثمن . ولكن شيئا ما لم يؤثر ، فان العنف الذي يطالب به البعض، ويكظمه البعض الاخر ، يدور حول نفسه : فينفجر يوما في « متز » ويوما اخر في بوردو ، ويمر يوما من هناك ، وسوف يمر من هناك . وهكذا نسلك بدورنا ، خطوة خطوة، الدرب الذي يؤدي الى حالة « الاهلية » . ولكن كان لابد،

دار الآداب تقدم

- زوربا
  نيكولاس كازنتزاكي ــ ترجمة جورج طرابيشي
- العراب
  ماريو بوزو
- الموت السعيد
  البير كامو ــ ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- الغريب وقصص اخرى
  البير كامو ــ ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- قصة حب
  اريك سيغال
- قصة أوليفر
  اريك سيغال
- الموت حبا
  بيار دوشين
- صورة الفنان في شبابه
  جيمس جويس ــ ترجمة ماهر البطوطي
- الجحيم
  هنري باربوس ــ ترجمة جورج طرابيشي
- الشوارع العارية
  فاسكو براتوليني ــ ترجمة ادوار الخراط
- الصخب والعنف
  وليم فوكنر ــ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا

لكي نصبح ابناء بلد تماما ، أن تكون ارضنا قد احتلهـــا مستعمرون قدامى وان نموت جوعا . وهذا ما لن يحدث : كلا ، فان الاستعمار المنهار هو الذي يتملكنا ، وهو الـذي لن يلبث ان يركبنا ، فارسا مدللا ومزهوا ، وهوذا « زارنا»، وسوف تقتنعون ، وانتم تقرأون اخر فصل لفانون ان من الافضل ، في اسوأ لحظات البؤس ، ان يكون المرء ابن بلد على ان يكون هذا المعمر الانف الذكر . فليس حسنا ان يكون موظف شرطة مضطرا لان يعذب عشر ساعات في اليوم :فان ذلك سيؤدي باعصابه الى الانفجار ، الا اذا منع الجلادون ، لمصلحتهم الخاصة ، من ان يعملوا ساعات اضافية . فحين يراد حماية معنويات الامة والجيش بصرامة القوانين ،فليس حسنا ان يحطم الجيش معنويات الامة ، ولا ان يضع بلـد جمهوري التقاليد مئات الالوف من شبانه بين ايدي ضباط انقلابيين مغامرين .

ليس حسنا ، يامواطني ، انتم الذين تعرفون جميـع الجرائم المرتكبة باسمنا ، ليس حسنا حقا الا تنبسوا ببنت شفة ، حتى ولا تجاه ارواحكم ، خشية ان تحاكموا انفسكم فتدينوها . انني اريد ان اصدق انكم كنتم في البدءتجهلون وبعد ذلك شككتم ، اما الان ، فانتم تعرفون ، ومع ذلـك تصمتون دائما . ان ثمانية اعوام من الصمت تحط الانسان. وبلا فائدة : فان شمس العنف المعمية هي اليوم في كبـد السماء ، وهي تضيء البلد كله ؟ وتحت هذا الضوء ، ليس ثمة بعد ضحكة تنطلق صادقة الجرس ، وليس ثمة وجـه لايضع المساحيق ليقنع بها الغضب او الخوف ، وليس ثمة عمل لايكشف اشمئزازنا ومشاركاتنا في الذنب . يكفـي اليوم ان يلتقي فرنسيان حتى تكون بينهما جثة . وحـين اقول جثة. . لقد كانت فرنسا في الماضي اسم بلد، فلنحاذر الا تصبح هذا العام اسم مرض نفسي .

أترانا سنشفى ؟ نعم . ان العنف يستطيع ، كرمـح أشيل ، ان يلأم الجراح التي احدثها . اننا اليوم مقيدون، مذلون ، مرضى بالخوف ، في الدرك الاسفل . ومن حسن الحظ ان هذا لايكفي للارستقراطية الاستعمارية : فهـي لاتستطيع ان تنجز رسالتها التعويقية في الجزائر اذا لـم تفرغ اولا من استعمار الفرنسيين . اننا نتقهقر كل يوم امام المعركة ، ولكن ثقوا اننا لن نتفاداها : فان القتله بحاجة اليها، انهم سيقتحمون صفوفنا ويضربون خبط عشواء ، وهكـذا سينتهي عهد السحرة والتعاويذ : فيجب عليكم ان تقاتلوا او تأسنوا في المعسكرات .

تلك هي اخر لحظات الديالكتيك : انكم تشجبون هذه الحرب ، ولكنكم لاتجرؤون بعد على ان تصرحوا بانكـم متضامنون مع المحاربين الجزائريين ، فلا تخافوا ، اعتمدوا على المعمرين والمرتزقة : فسوف يساعدونكم على ان تقطعوا هذه الخطوة . واذ ذاك ، ربما تطقلون العنان ، وظهوركم الى الجدار ، لهذا العنف الجديد الذي يبعثه فيكم بعض الجرائم القديمة المعادة معكم . ولكن تلك ، كما يقال ، قضية اخرى. قضية الانسان . وانا على يقين من ان الزمن الذي سننضم فيه الى من يصنعون قصة الانسان ، يقترب رويدا رويدا .

جان بول سارتر

ترجمة سهيل ادريس

دار الآداب تقدم

جبرا ابراهيم جبرا

في رواياته الاربع

السفينة

*

صراخ في ليل طويل

*

صيادون
في شارع ضيق

*

البحث عن
وليد مسعود